توفيق فياض

عن الارض والأدب

« اكتشاف الواضح والبسيط ، تلك هي المسالة المعقـدة » .. كان ذلك مبعث حيرتي وأنا أدير بذهني ملامح الحوار مع توفيق فياض الكاتب الفلسطيني الذي خرج حديثا من سجون الاحتلال الصهيوني . فلاح حقيقي يروي ببساطة رائعة حكايات شعبه وصموده ، هذا باختصار شديد توفيق فياض ..

وعالم توفيق فياض هو الارض بترابها واشجـارها ونباتاتها وحيواناتها ، فما هو سر هذه العلاقة .. طفولة ونشاة ؟

« ولدت في مدينة (حيفا) ، لكن سنوات طفولتي قضيتها في دير للراهبات (الراهبات الالمانية) يحتوي على مساحة زراعية واسعة فيها مختلف أنواع الاشجار والخضروات .. ففي كثير من الاحيان كنا نتلقى دروسنا تحت أشجار الزيتون .. العابنا كانت تجري دائما بين الاشجار .. وفي مـواسم الزيتون كنا نساعد الكبار في جمع الزيتـون .

هذا اللقاء الطفولي مع الارض والممارسة المبكرة معها كان يستكمل صورته في حضن أمي في فترات الاجازة .. وأمي فلاحة لا زالت تحمل في روحها قرية « فسوطه » الجبلية القاسية والجميلة .. واحاديثها وحكاياتها عن فسوطه لا تنتهي : الفلاحون الذين يحيلون الارض الجبلية الجرداء الى أراض صالحة للزراعة .. والدها المشهور كاكبر صيادي الشمال .. عادات القرية وتقاليدها ... الخ .

وأمي تتقن استخدام كافة أنواع الاسلحة ، كما تتقن الركـوب على الخيل .. فيها الكثير من ملامح الرجال مثل معظم الفلاحـات في الريف الفلسطيني .. والغريب ان أمي حتى هذه اللحظة لا تستطيع النوم الا اذا حكشت ما تزرعه في حاكورة البيت من بندورة او بقدونس او غيرها من الخضروات .

في فصول الصيف التي كنا نقضيها في قرية المقيبه حيث تعيش جدتي كانت تتواصل علاقتي بالارض .. ففي القرية أرض لوالـدي يزرعها قريب لنا محروم من الاطفال ، تعلق بي كما تعلقت به ، كـان يأخذني دائما حيث يعمل فاقضي النهار في المقاهي وركوب الحمير والذهاب الى العين . اضافة الى ذلك كانت هناك الرحلات التـي نقوم بها في انحاء مختلفة من البلاد .. هكذا قضيت سنوات طفولتي الاولى بين الدير وفسوطه الجبلية والمقيبه الساحلية حتى وقعت النكبة فرحلنا من حيفا الى المقيبه .. والدي الذي تنكر للقرية والارض بفعل ظروف الاحتلال وسياستـه الاقتصادية عاد ثانية ليعمل بالارض بيديه اللتين كانتا تنزفان ماء لعدم التعود .. كان يتملكه احسـاس بالذنب والالتصاق بالارض اكثر .. كان يشعر انه لم يعط ارضـه ما تستحقه من حب .

في تلك الفترة كنت معه دائما في الحقل أساعده وأحـرس الزرع .

بعد أن احتلت الهاجناه المقيبه هاجرنا ثانية مع اهل القريـة لنقضي قرابة العام في جبال نابلس بين اشجار الزيتون .. هذا العام علمني اكثر معنى ان يكون للانسان ارض .. كانت والدتي تصنـع لنا الكعك الذي نحمله انا واخوتي ونتنقل بين القرى المجاورة لبيعـه ، في تلك الاثناء كنا نعيش على ما تقدمه الطبيعه من نباتات برية كالزعتر والسناري والمرير والقريص والعكوب والفقع .. حياتنا خلال عـام ظلت ترحالا دائما بين الجبال والوديان والسهول والقرى نبيع الكعك ونجمع نباتات الطبيعة .. اضافة الى ذلك كنا نسرق من المقاتي المجاورة البندورة والفقوس والخيار والكوسى .. كنا اطفالا ونجد صعوبة في فهم قوانين الملكية ، كنت أعتقد ان الارض ملك للجميـع ، غير ان أصحاب المقاتي الذين كانوا يطاردوننا ويرجموننا بالحجارة (كنا ايضا نرد عليهم) علمونا مبكرا هذه القوانين كما علمونا رفضها في نفس اللحظـة .

خلال تجوالي لبيع الكعك تعلقت بالرعيان والاغنام وشبابة الراعي، حتى انني في احد الايام اشتريت شبابة بكل حصيلة البيع ذلك اليوم، واخبرت أهلي ان الكعك قد وقع في الطين .. وأصبحت بعـد ذلك رفيقا للرعيان ليعلموني العزف على الشبابة مقـابل بعض الكعك .

حين بدأ الجيش العراقي هجومه لتحرير قرى المثلث العربـي سارت الاهالي خلف الجيش ، وكنت اركض امام الاهالي ممتلئا بنشوة طاغية .. ها نحن نعود الى بيتنا ومقتاتنا في المقيبه .. التي يحررها الجيش العراقي ثم لا يلبث ان يتوقف على ابواب العفوله بنـاء على الاوامر العليا ، ينتحر القائد العراقي احتجاجا ، وتبدأ اسئـلة من نوع جديد تطرق راسي الصغير ..

في معاهدة رودس يدخل المثلث العربي بما فيه قريتنا داخـل حـدود التقسيم، ويبدأ الاهالي مرة ثانية بالهرب خوفـا مـن الانتقام الصهيوني ومن هتك الاعراض كما شاع آنذاك .. لكن والدي وعـددا من الرجال كانوا يركضون خلف الناس لاقناعهم بعدم ترك الارض . الجيش العراقي كان يقول لنا : موتوا بارضكم ولا تغادروها . البـلاد بيعت .. وفعلا بقي عدد كبير من أهل مقيبه في ارضهم ولم يرحلوا .

ان عام التشرد والاهانات الذي عشناه على مدار سنة كاملة في الجبال كان عاملا هاما في تمسكنا بالارض وعدم الرحيل عنها . ومقابل ذلك بدا الصراع والتحدي ضد المحتلين في التشبث بالارض وعدم التفريط بها .. تلك كانت قصة الصمود الباسل الذي وقفه الفلاحون في السنوات التالية وعلمني قيمة الارض ، وربطني بها اكثر . (هذه القصة البطولية هي موضوعات توفيق فياض وحكاياته التي ضمتها مجموعته القصصية « الشارع الاصفر ») .

المقيبه وصندله هما القريتان العربيتان الوحيدتان في مرج ابن عامر اللتان واجهتا سياسة التهجير ومصادرة الاراضي فتحولتا نتيجة ذلك الى منطقتين معزولتين عن العالم .. الحياة فيهما تعتمد على الارض والشجرة والماشية ، وليس هناك مصدر رزق آخر .. التصاريح ممنوعة والخروج من القريتين بالتالي ممنوع ، وليس هناك اية خدمات تقدم للقريتين .

في عام ١٩٥٢ عرض المحتلون عروضا مغريه لبيع الارض ومغادرة القرية الى الاردن .. حين رفض الاهالي هذه العروض لجأ المحتلون الى سياسة الارهاب والبطش والتنكيل من اعتقالات ومداهمات لدفع الناس لبيع اراضيهم .. لكن العدو الذي فشل في كلا الاسلوبين لجأ الى أسلوب جديد بالادعاء ان هذه الاراضي دخلت قانون الاستيطان، والخيار المطروح امام اهل القرية هو بيع الاراضي والهجرة الى الاردن او مبادلة اراضي هذه القرية بقرية اخرى اسمها شعب بحيث يأخذ الفلاح مقابل كل دونم ارض في مرج ابن عامر خمسة دونمات في قرية شعب ومقابل كل غرفة اربع غرف ، لكن الفلاحين رفضوا فازداد الاضطهاد وحوصرت القرية لمدة ستة اشهر حصارا تاما بحيث لا يدخلها او يخرج منها احد ، كما منع عنها كل شيء .. في هذه الاثناء وقعت حادثة « اقرث » حيث ادعى المحتلون بانهم سيقومون بمناورات عسكرية في المنطقة وعلى أهالي اقرث مغادرتها عدة ايام ، وحين فعل الاهالي ذلك قصفها الاسرائيليون بالطائرات ودمروها ليفرضوا على اهلها القبول بمنطقة ثانية .. امام هذه الحادثة اصر أهل المقيبه على البقاء في بيوتهم حتى ولو أدى الامر الى قصفهم بالطائرات .

حين جاءت التراكتورات لحراثة ارض القرية على اساس انها اراض مصادرة خرجت القرية بكاملها الى الحقول والقى الناس بانفسهم تحت عجلات التراكتورات .. كنت مع الذين القوا بانفسهم تحت العجلات ، وكنا نصرخ فيهم : اصعدوا فوقنا اذا اردتم ان تمروا ...

ومن المشاهد التي لا تنسى في تلك الساعات الرهيبة جارة لنا انتزعت طفلها الرضيع عن صدرها والقت به امام التراكتور وصرخت بالسائق : « اذا كنت زلمه اطلع عليه » ... في تلك اللحظة أوقف السائق التراكتور ونزل منه .. أدار ظهره للقرية ومضى بعيدا في مرج ابن عامر والدموع تملأ وجهه .. وحين حاول الجنود ايقافه زجرهم بعنف ومضى مبتعدا في المرج الواسع ..

ذلك الحدث الذي لا ينسى اضاف لعلاقتي بالارض معنى جديدا. لقد صار حب الارض يحمل معنى الفداء والتضحية من اجلها ..

● خلال هذه السنوات ماذا كنت تفعل ؟

حتى عام ١٩٥٥ كنت أعمل في الارض كأي فلاح .. أزرع واحرث واقلب الارض واحصد ، كما كنت أرعى الاغنام .. كنت كذلك اشارك في احتفالات القرية .. اغني وارتجل الاغاني .. الكبار كانوا يدعونني لاروي لهم الحكايات التي كنت احفظ الكثير منها بواسطة جدتي (بعد سنوات طويلة كتب توفيق قصتين عن جدته : « الديك الضائع » و « ليلة القدر ») .

الناصرة ومرحلة التحول

في ذلك العام (١٩٥٥) انتقلت الى الناصرة للدراسة ، وهناك عشت في الحارة الشرقية التي لا تعدو كونها قرية مزروعة في المدينة، فمعظم سكان الحارة فلاحون يستعملون الهواب ويزرعون اراضي القرى المجاورة . وحول بيوتهم لا زالوا يزرعون الحواكير الى الآن ..

عندما انهيت دراستي عملت معلما في المقيبة مدة عام واحد فقط ثم طردت من عملي لاعود ثانية للعمل كفلاح ، الى ان دخلت السجن عام ١٩٧٠ ، الا انني واجهت وضعا مركبا خلال عملي الجديد ، فبعد ان صادر المحتلون ارضنا وحولوها الى بركة كبيرة ضمن قانون تركيز الاراضي الجديد (هذا القانون الذي قاومه السكان دون جدوى ورفضوا ان يأخذوا ارضا مقابل ارضهم او ان يتنازلوا عن ملكيتها مقابل المال) وجدت نفسي مضطرا لبيع قوة عملي في القرى الزراعية والكيبوتسات أزرع واحرث واربي الابقار والماشية . الوضع المعقد الجديد الذي وجدت نفسي فيه هو احساسي المرير بأن ثمر هذه الارض يذهب للمحتلين .. لقد صارت القضية الآن اكبر بتحرير الوطن وليس بالدفاع عن ارض القرية فقط ..

● لا شك ان هذه الفترة الطويلة تفسر سر علاقتك بالارض .. هذه العلاقة العفوية الوطنية الطبيعية ، كيف تطورت في مرحلة الوعي اللاحقة ؟

ـ لا شك ان الناصرة كانت نقطة التحول الاساسية ، فهذه المدينة العربية كانت تمور فيها تيارات وطنية وعروبية حادة وتتلقى على الدوام انعكاسات الوضع العربي ، وخاصة في عام ١٩٥٦ وخلال العدوان الثلاثي على مصر ، حيث وقعت مذبحة كفر قاسم ..

لقد خرجت جماهير الناصرة لتمنع بالقوة تحرك السيارات العسكرية الاسرائيلية ، كانت ملحمة رهيبة سقط خلالها أعداد كبيرة من الجانبين . وفي عام ١٩٥٨ حدثت ملحمة اكثر دموية بمناسبة الاحتفال بعيد العمال ، وزج بالمئات في المعتقلات ، وكنت واحدا ممن اعتقلوا مؤقتا في تلك الفترة .. كان ذلك هو الاعتقال الثاني لي .. المرة الاولى حين كنت صغيرا حيث سجنت خمسة أيام بتهمة سرقة حمل .. والحقيقة ان هذا الحمل قد سرح الى قريتنا وحده من كيبوتس قريب ، فأخذته وربيته ، ولكن لونه المميز كشفني في النهاية فصادروه ودفع والدي ١٠٠ ليرة اضافة الى الاعتقال .

الاتجاهات السياسية الرئيسية في فترة وجودي في الناصرة كانت تتركز بقوتين أساسيتين : « حركة الارض » والحزب الشيوعي . لكنني لم أكن عضوا في أي منهما وان كنت اكثر ميلا لحركة الارض التي كانت مفاهيمها الاساسية قومية تحررية اشتراكية ، الا ان هذه الحركة لم تلبث ان تلاشت بفعل الضربات المتلاحقة التي وجهت لها.. اما الحزب الشيوعي الذي كنت صديقا له فان عدم انتمائي له يعود اساسا لرفضي الموافقة على بند في قانونه الاساسي ينص على ان حامل عضوية الحزب هو مواطن اسرائيلي .

هكذا وجدت نفسي في معترك الحياة السياسية والنضال الوطني .. هذه الفترة شهدت ولادة الادب المقاوم في الارض المحتلة ، وبدأ الكتاب والشعراء يلعبون دورا تحريضيا بارزا في الحياة السياسية : حنا ابو حنا وحبيب قهوجي والقاص فرج نور سلمان وراشد حسين .. والاخير كان ابرزهم وهو بحق واضع حجر الاساس لشعر المقاومة . وعلى اثر ذلك ظهر درويش والقاسم وجبران وغيرهم .. وغيرهم ... هذا الادب اسميه ادب التصدي : فقد كان يتعرض اساسا لمحاربة محاولات اقتلاع العربي ارضا وشخصية ، وضد الاحكام والقوانين الجائرة التي يضعها المحتلون .

● أنت اساسا كاتب قصة قصيرة بالاضافة الى كونك روائيا وكاتبا مسرحيا .. كيف نشأت علاقتك بالقصة كشكل أدبي خاص ؟

ـ لا اعرف بالضبط سر علاقتي بالقصة تحديدا .. ربما يعود ذلك الى طبيعتي كفلاح يعتمد على الحكاية بشكل أساسي والحكاية الرمزية في كثير من الاحيان .. أذكر مثلا بعد احتلال اسرائيل لسيناء والجولان والضفة الغربية ان فلاحا قال مباشرة تعليقا على ذلك : « واوي وبلع منجل » وبقية المثل معروف .. هذا الاسلوب في الحكاية الرمزية التي يلجأ اليها الفلاح بذكائه الفطري الذي يبلغ أحيانا درجة الخبث وصولا لما يريد ، ربما كان الدافع غير الواعي لانجاهي نحو القصة .. خاصة لاضطراري اللجوء للرمز أيضا .

● متى وكيف بدات تكتب القصة القصيرة ؟

ـ في مدرسة الناصرة وفي دروس الانشاء العربي كنا نكتب أحيانا قصصا قصيرة ، وكان أستاذ العربي يسجل على كل قصة اكتبها « سيئة جدا » أو « سيئة » حتى اكتشفت أخيرا بأن هذا الاستاذ واسمه حبيب ذيب هو أيضا كاتب قصة ، ولم يكن يريد ان يصيبني الغرور مبكرا ، ثم أخذ يشجعني على كتابة القصة القصيرة ويقرا كل ما اكتب .. كذلك كان هناك أستاذ عربي آخر اسمه حنا ابراهيم يوفر لي ما أحتاجه من كتب ، ويوليني رعاية كبيرة .

● ماذا عن الشكل الفني وكيف توصلت اليه ؟

ـ حين بدأت كتابة القصة القصيرة ، كنت خالي الذهن عن القصة القصيرة ومدارسها ، وحتى ذلك الوقت لم أقرأ سوى بعض قصص تيمور والمازني وعددا من القصص الامريكية والانكليزية المقررة ، لهذا فانت تستطيع القول بأني كاتب بعل ، فيما بعد بدأت بالاطلاع على القصة القصيرة العالمية ، خاصة في الستينات .

● هل تأثرت بقصاصين محددين ؟

ـ لا اذكر انني تأثرت مباشرة بقصاصين .. أذكر انني أحببت تشيكوف مبكرا .

● هل تكتب الشعر (١) ؟

ـ محمود درويش يقول ان هذا من عاداتي السيئة ، لكنني لست شاعرا . في السجن كانت القصيدة الاسلوب الوحيد الممكن للتعبير عن النفس . نشرت بعض القصائد تحت اسم مستعار « ابن الشاطىء » .. حين كنت صغيرا كنت أكتب وأرتجل الاغاني.. ذلك سبب لي مشكلة كبيرة ، وكدت أن أضرب .. ربما لذلك توقفت عن كتابة الشعر . أما عن لغتي الشعرية في قصصي فلان لغة اهل القرية فيها كثير من الشعر والغنائية ، ولهذا تلاحظ هذا الجانب الشعري في القصص الاكثر ارتباطا بحياة القرية ولغتها العامية ..

● تتعرض قصصك المنشورة لموضوعات سابقة على عام ١٩٦٧ ، ماذا عن قصص الفترة اللاحقة .. مرحلة الثورة الفلسطينية ؟

ـ بعد عام ١٩٦٧ كتبت اكثر من أربعين قصة قصيرة غالبيتها عن الثورة والفدائيين ، ولكن ظروف النشر في الداخل حالت دون خروجها الى النور باستثناء قصة واحدة . لكن هذه المجموعة بعد اعتقالي وتفتيش بيتي مرارا اختفت ، كما اختفت معها مسرحية غير كاملة ورواية .

أجرى الحديث نزيه ابو نضال

(١) أسلوب توفيق فياض فيه الكثير من الشعر :
« ـ ولو يا أم الخير ، عهدي ثيك صامده ، وفلوع شدايدك.. تيجي العواصف وتروح ، وسنديان جبالنا ناصب مثل العرايس .. وزيتون بلادنا يا أم الخير في الخريف بدر مواسمه ، وزيته يطفح خوابينا .. وفي شهور الشدة يملا حلالنا سوار دورنا عبران . وما دامت جبال بلادنا تعلب غيوم سماها وتملا جرار أم الخير مي ، ما دامت أم الخير عايشه وتشرب الناس ميتها .
والقروح اللي عافت الناس بلاها ، شامات حسن على خدودها نصير ، يبهر الناس زينها » .

***

المخبر

قصة بقلم توفيق فياض

لو لم يغير « ابو صالح » لهان عليها كل ما رأته من ويلات حرب حزيران ، حين دخلت القوات الغازية قرية طوباس ، وهي تحتل القرية بعد الاخرى ، من قرى الضفة الغربية . بل ولهان على « أم صالح » كل ما يرتكبه المحتلون من افعال تشيب لها الاطفال ، كما كانت تقول دائما .

فبدلا من ان يواسيها ، ويخفف عنها حزنها ، على فراق أبنائها الثلاثة ، الذين رحلوا مع بقية أهلها الى الضفة الشرقية من الاردن ، أصبحت لا تستطيع التحدث اليه في أي شيء ، حتى ولا في شؤون البيت ، لكثرة أشغاله كما يقول لها دائما . لقد عاشت معه سنين طويلة ، دون ان تسمع منه في يوم من الايام انه مشغول . خاصة حين كانت تود التحدث اليه ، بل انه لم يكن ليتاخر ليلة واحدة عن العودة الى البيت ، اكثر مما تقتضيه صلاة العشاء ، اللهم الا في ليالي الاعياد ، حين كان يسافر لزيارة شقيقته المتزوجة في القدس . اما اليوم فلم تعد تعرف الى أين يذهب ومن أين يأتي . يوم « انا رايح على نابلس يا مرة » . يوم « أنا رايح على جنين » ، وكلما حاولت سؤاله عما يشغله ، وماذا يفعل في نابلس أو في جنين ، فاما انه لا يرد عليها البتة ، واما انه يكتفي بقوله ، ان لا دخل لهـا في شؤونه .. فتسكت خوفا من نظراته المتوقدة التي يصوبها نحوها .. ثم يخرج مرتعدا وهو يتمتم ، ان باله مشغول على الاولاد ، وان لا بد له من الحصول على تصريح من السلطات لارجاعهم ، وبأي ثمن ، ولا يعود الا بعد منتصف الليل ، أو قبيل الصباح ، رغم حظر التجول الذي فرضه المحتلون على القرية اثناء الليل . وفي كل ليلة كان يعود فيها متاخرا ، تكون لا تزال ساهرة في انتظاره ، الا انه كان يدخل الديوان دون ان يكلمها ، الى أن صرخ في وجهها ذات ليلة ، بانه اذا وجدها غير هذه المرة تقف في طريقه ، وتنظر اليه كعادتها ، فسيطلقها ، مما جعلها لا تجرؤ على النهوض من فراشها كلما عاد ، وهي التي كانت تنتظره كل تلك السنين الطويلة وكل يوم ، حتى يعود لتقوم على خدمته الى أن يأوي الى فراشه وينام .

نفد صبر « أم صالح » ولم تعد تحتمل هذه الحياة مع « أبي صالح » ، وقد عرفت بحدسها ما يفعله ، لا سيما بعد أن اصبحت ابنتها صبحية لا تكف عن سؤالها عما يفعله والدها ، ولماذا يخرج في الليل ، بينما لا يستطيع الآخرون الخروج . وكيف ان جميع بنات الحارة بدأن يبتعدن عنها شيئا فشيئا ، ولا يشركنها في حديث أبدا . وكلما مرت بمجموعة من النساء ، يبدأن بالتهامس خلفها . فراحت « أم صالح » تراقبه عندما يخرج .. وذات يوم تبعته الى كرم الزيتون فرأته يصعد سيارة عسكرية ، كانت في انتظاره ، فراح قلبها يخفق بشدة ، ولم تتماسك نفسها عن البكاء ، وهي تعود أدراجها الى البيت .

وما كادت تصل الى البيت حتى سمعت جارتهم « أم علي » وهي تصرخ باعلى صوتها « ول يا علي ، نقطعت البنات تاتناسب هالخاين ، اللي الله أعلم كم شهيد صار برقبته.. الله ينتقم منك يا بو صالح » .

التتمة على الصفحة ٧٤

عن الارض والادب

ـ تابع المنشور على الصفحة ١٦ ـ

قبضت « ام صالح » على فتحة ثوبها بكلتا يديها ، وقدته حتى اسفله ، وهي تكتم شهقتها ، ثم اندفعت داخل البيت ، واغلقت الباب خلفها كي لا تسمع صبحية ما تقوله « ام علي » ، فوجدتها تجلس في الزاوية وهي تنتحب بمرارة ، فاقتربت منها تحتضنها ، الا انها ما كادت تلمسها ، حتى قفزت وهي تصرخ باعلى صوتها ، انها تريد الموت ، واندفعت نحو تنكة النفط ، بينما راحت تقاومها بكل قوتها ، حتى انتزعتها من يديها ، وشرعت تهدئها خوفا من الفضيحة .. وهي تعدها بردع والدها عما يفعله ، وانها ستقطع بها النهر لتلحق باخوتها ، وتتركانه وحده اذا لم يرتدع .

كانت طوباس تتلفع باحلام جبالها السبية ، وريح كانون المتوجسة تتلاحق في ازقتها . وزخات المطر المتقطعة تدق ابواب المنازل الموصدة و « ام صالح » لا تزال ساهرة الى جانب صبحية التي نامت ودموعها تندي اهدابها الطويلة المفضضة . ثم استسلمت لغيبوبة طويلة ، وهي تثبت نظراتها على صورة ابنائها الثلاثة المعلقة في صدر البيت ، والذين لم ترهم منذ اكثر من عام ، ولا تعرف عنهم شيئا ، سوى ما نقله لها بعض الغائبين « بلغوا امي اننا بخير ، قولوا لها ان لا تحزن علينا ، اذا لم نعد اليها قريبا » . فتبكي بمرارة ، وتغيب على ضفاف بسمة صغيرهم احمد ، الذي كان يكبر امام عينيها .. ويكبر ! فيكبر الزغب الحريري على وجهه القمحي الجميل ، ثم ما يلبث ان يغيب تحت كوفيته المهدبة ، فتسقسق البسمة الياسمينية تحت اللثام .. لتنساب في عينيه الفاضبتين .

ناحت على الباب ريح الليل ، وانتعفت على الشبابيك دموع المطر ، ودوت عدة انفجارات متتالية ، فانتفضت وهي تقفز من مكانها الى الشباك ، تستوقفها لعلعات رشاشات متواصلة ، بدت لها قريبة جدا ، حتى انها استطاعت تحديد موقعها بين الجبال ليس بعيدا من كرمهم ، ثم ما لبثت الرشاشات ان توقفت عن لعلعتها ، بينما بقيت متجمدة على الشباك تفكر بـ « ابي صالح » الذي لم يعد منذ ان رأته يصعد السيارة العسكرية ، ورفعت يديها الى أعلى ، تدعو الله أن يأتوا لها به محملا على خشبة ، او يكون قد قتل وبقي مرميا بين الجبال ، تأكله الوحوش ، ولا ترى وجهه ثانية .

لم تعرف كم من الوقت مضى عليها ، وهي تجلس الى الشباك ، حين سمعت هدير سيارة خافتا ، تتوقف خلف سياج الدار ، فنهضت وخنقت نور المصباح اكثر ، بعد ان انتزعته من الجدار ، ووضعته على ارض الغرفة في الزاوية ، وراحت تجيل نظرها في ظلمة الليل الحالكة ، الا انها لم تستطع رؤية اي شيء في الخارج ، عاودت السيارة هديرها الخافت مبتعدة ، اعقبتها خطوات « ابي صالح » وهو يدلف الى ساحة الدار ، فراحت تترقبه وقلبها يدق بسرعة عجيبة ، مستعدة لمواجهته . وقفت تعترض طريقه الى الديوان ، فدفعها بكل قوته صارخا بانها طالقة منه ، وانه لا يريد ان يراها في بيته منذ الصباح . فخرت على الارض صارخة صرخة صحت على اثرها صبحية ، التي قفزت من نومها مذعورة ، ثم اسرعت اليها تحتضنها ، بينما دخل الى الديوان وهو ينتفض غضبا .

كان صباح اليوم التالي ناعسا نديا ، وغيومه الرمادية ، اغنام ترعى على اطراف الافق . وكان الجنود يسوقون نساء ورجال قرية طوباس ، الى ساحة البلدة الكبيرة ، حيث وقفوا واجمين تتوزعهم نظرات الغضب والحزن الهادئة ، بينما وقف « ابو صالح » منكسا راسه الى جانب زوجته وابنته ، حول اربع جثث ملفعة . ثم ما لبث الجنود ان تفرقوا عن الجثث ، بينما بقي احدهم الى جانبها ينتظر اوامر القائد للكشف عنها ، وابراز وجوهها للتعرف عليها .

فردت الشمس حزنها الذهبي على الوجوه المشرقة ، فشهقت العيون المترقبة تحتضن « ام صالح » ، التي ركعت تلملم بشفتيها الثاكلتين ، بسمة حارت على محيا صغيرهم .. الذي اخذ يكبر امام عينيها ويكبر .. فيكبر الزغب الحريري على وجهه القمحي الجميل . بينما راحت انامله تداعب خصل الحرير على الجبين السنديانى .. وتمسح عن الجفنين حزنهما الفلسطيني الوادع .

انتصبت بين الجنود الذين اقتربوا منها لابعادها ، واخذت بيد ابنتها سائرة نحو ابناء القرية ، بعد ان التفتت الى « ابي صالح » الذي ظل يقف وحيدا ، دافنا وجهه بين يديه .

دار الاداب تقدم

يوسف شرورو

في

عين في النهار

مجموعة قصص جديدة

صدرت حديثا